جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ
السنة الثالثة

مقرر تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر
(المحاضرة الرابعة)
أ.د. أحمد الخضر– د. محمد الحجي

الاستعمار الأوروبي للقارة الإفريقية (٢)
احتلال القارة وتقسيمها

أولاً – أسباب احتلال القارة الإفريقية وتقسيمها:

أسهمت أسباب اقتصادية وسياسية ودينية ووطنية في دفع الدول الأوربية الاستعمارية إلى احتلال القارة الإفريقية وتقسيمها فيما بينها.

١– تقدم معرفة أوروبا بالقارة الإفريقية:

بعد انتهاء مرحلة الكشف العلمي للقارة، أمكن رسم المحاور الأساسية للتوغل إلى داخل القارة، فلم تعد مهمة الرحالة الأوربيين صعبة، وانحصرت مهمتهم في الحصول على حقوق لبلادهم لاحتلال الأراضي المكتشفة عن طريق عقد معاهدات مع زعماء إفريقية وقادتها.

٢– الأسباب الاقتصادية:

أ– وعي الأوروبيين للغنى الاقتصادي للقارة الإفريقية:

بعد أن حققت صناعة الدهون في القرن التاسع عشر تقدماً هائلاً في أوروبا، أصبح بالإمكان استخدام **الدهون النباتية** الإفريقية الرخيصة مكان الدهون الحيوانية، كما استخدم الصمغ بصناعة النسيج، والعاج في مقابض السكاكين.

ومن جهة أخرى حلَّ **القطن المصري** محل القطن الأمريكي الذي تستورده أوروبا وخاصة بعد الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١–١٨٦٥).

كما أن اكتشاف **الماس والذهب والنحاس** جذب انتباه الرأسماليين الإنكليز نحو إفريقية الجنوبية.

وأدى افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية عام ١٨٦٩ إلى إعادة اهتمام الأوربيين بإفريقية الشرقية بعد أن كانوا قد أهملوها لصالح إفريقية الغربية.

ب- حاجة أوروبا لأسواق جديدة، ومصادر إضافية للمواد الخام اللازمة لصناعتها:

فقد تزامن وعي الأوربيين لغنى القارة الاقتصادي مع حمى فيض الإنتاج الصناعي الأوروبي، وظهور منافسين جدد في مجال الصناعة (فرنسا وألمانيا)، فطرحت مسألة إيجاد أسواق جديدة للتصريف نفسها بقوة، إضافة للحاجة الماسة للمواد الأولية، فاتجه الأوربيون إلى إفريقية على أمل أن يجدوا ضالتهم.

٣- الأسباب الوطنية:

تجلت هذه الأسباب في رغبة الدول الاستعمارية القديمة، التي فقدت إمبراطورياتها الاستعمارية الضخمة، في الحفاظ على تقاليدها التوسعية ومكانتها الدولية كدول عظمى (فرنسا وإنكلترا).

إضافة إلى رغبة الدول الأوربية الأخرى التي لم تكون إمبراطوريات استعمارية (ألمانيا وإيطاليا) في تكوين مثل هذه الإمبراطوريات.

٤- الأسباب الدينية:

تمثلت في الرغبة الأوربية بنشر الدين المسيحي في البلدان الإفريقية وتوسيع انتشارها، إضافة إلى الوقوف في وجه المد الإسلامي في القارة الإفريقية.

وقد ساهمت البعثات التبشيرية الأوروبية في خلق هذه الرغبة وتعزيزها والسعي لتحقيقها بتشجيع من رجال المال والعمال الأوربيون.

٥- الأسباب السياسية:

تجلت في ظهور النزعة الاستعمارية في الدول الأوربية الغربية لفرض سيطرتها العسكرية والسياسية على شعوب وحكومات القارة الإفريقية، بهدف استغلالها اقتصادياً.

ثانياً- بداية التكالب الاستعماري الأوروبي على القارة الإفريقية

حتى عام ١٨٧٠، اقتصر التنافس الاستعماري على القارة الإفريقية بالدرجة الأولى على التنافس بين فرنسا وإنكلترا، ولكن بعد هذا التاريخ أخذت الإمبرياليات الوطنية في الدول الأوروبية الأخرى بالظهور، وتحول التنافس من ثنائي إلى دولي.

شكلت مساعي ملك بلجيكا **ليوبولد الثاني** للسيطرة على حوض نهر الكونغو بداية التكالب الاستعماري الأوروبي على القارة. فبعد أن عقد الملك البلجيكي المؤتمر الجغرافي الأول للمهتمين بالدراسات الإفريقية الذي أسفر عن تأسيس الهيئة الدولية لكشف إفريقية ونشر الحضارة فيها. استخدم ستانلي لمساعدته على تنفيذ مشروعاته في الكونغو، وبعد تأسيس هيئة دراسة الكونغو

الأعلى عام ١٨٧٨ كلف ستانلي بمهمة إنشاء محطات على نهر الكونغو، وعقد اتفاقيات ومعاهدات مع زعماء القبائل الإفريقية. وعلى إثر نجاح ستانلي في تأسيس ٢٢ محطة على نهر الكونغو وفروعه، قام ليوبولد الثاني بتحويل الهيئة من دولية إلى بلجيكية بحته. الأمر الذي دفع الدول الأوروبية إلى التسابق لاحتلال القارة.

حاولت إنجلترا إحباط مشاريع ملك بلجيكا بعقد معاهدة مع البرتغال ١٨٨٤ تعترف فيها بحق البرتغال في الاستيلاء على إقليم الكونغو، ولكن مشروع هذه المعاهدة لقي معارضة إنكليزية داخلية، ومعارضة أوربية وأمريكية. وسرعان ما تحولت المسألة الإفريقية برمتها إلى قضية تشغل بال الدول الأوربية، وأصبح واضحاً أن الخلاف بين الدول الأوربية يحتاج إلى مؤتمر دولي لحله. عندئذ قام المستشار الألماني بسمارك بمساعٍ لعقد مؤتمر دولي لبحث مسألة الكونغو والمسائل المتعلقة بها.

ثالثاً- مؤتمر برلين(١٥ تشرين الثاني ١٨٨٤-٢٦ شباط ١٨٨٥)

عُقد المؤتمر في برلين في **١٥ تشرين الثاني ١٨٨٤**، وحضره مندوبو ثلاث عشرة دولة هي ألمانيا، والنمسا، والمجر، والدنمارك، وإسبانيا، والبرتغال، وبريطانيا، وفرنسا، والولايات المتحدة، وروسيا، والنروج، وإيطاليا، والدولة العثمانية.

عُقد المؤتمر تحت شعار ***"تنظيم أحسن الشروط لتنمية التجارة وازدهار المدينة في بعض المناطق الإفريقية"***. ولكن هذا المؤتمر لم يناقش مناقشة جدية مسألة تجارة الرقيق أو النزعة المثالية السامية التي عُقد المؤتمر تحت شعارها. وأصدر المؤتمر عدة قرارات جوفاء بشأن إلغاء تجارة الرقيق ورفاهية الإفريقيين.

من أهم قرارات المؤتمر:

أ- إصدار قرارات بشأن حرية الملاحة في نهري النيجر والكونغو وروافدهما

ب-إرساء القواعد التي يتعين مراعاتها مستقبلاً فيما يتعلق باحتلال الأراضي على سواحل إفريقيا

ت-اتفقت الدول الأوربية على أن كل دولة تحتل جزءاً من الساحل عليها أن تبلّغ ذلك الاحتلال لغيرها ولها الحق في الأراضي الداخلية والخلفية لهذا الساحل

ث-حصل ليوبولد ملك بلجيكا على الاعتراف بدولة الكونغو الحرة

وتضمنت قرارات المؤتمر أيضاً

١- حرية التجارة في حوض الكونغو

٢- إلغاء تجارة الرقيق والعمل على مطاردتها والقضاء عليها

٣- حياد إقليم الكونغو

٤- عدم فرض دولة ما حمايتها على منطقة من المناطق دون أن تبلغ ذلك إلى الدول الأخرى الموقعة على هذا الاتفاق

٥- أن تؤيد الحماية باحتلال فعلي لهذه المنطقة، على أن تضمن هذه الدولة تقدم المستعمرة وإقامة دولة عادلة فيها

ومن الملاحظ أن المؤتمر لم يعن مطلقاً بمصالح الشعوب الإفريقية والحفاظ على حقوقهم الوطنية ولم ينص على احترام أملاكهم أو عاداتهم أو حسن معاملتهم، فقد أعطت القوى الأوربية لنفسها الحق في تقسيم قارة أخرى وغزوها. ولم يسبق في تاريخ العالم أن اعتقدت أي مجموعة من الدول في قارة ما أن لها الحق في أن تعقد محادثات بشأن تقاسم أراضي قارة أخرى واحتلالها على هذا النحو من الوقاحة.

وبذلك وضع مؤتمر برلين الأسس والمبادئ التي سيتم على أساسها تقسيم القارة الإفريقية بين الدول الأوربية. وهذا ما يدحض الخطأ الشائع القائل بأن مؤتمر برلين هذا كان مؤتمراً لتقسيم القارة الإفريقية.

رابعاً- احتلال القارة الإفريقية وتقسيمها:

بعد انتهاء مؤتمر برلين ازداد التكالب على القارة الإفريقية، واتخذ شكل اغتصاب وسلب ونهب، وشهدت القارة سلسلة من المعاهدات والاتفاقيات لم تشهد السياسة العالمية مثلها في أي وقت من الأوقات. وكانت تلك المعاهدات تتخذ شكلين:

- معاهدات بين الإفريقيين والأوربيين
- اتفاقيات ثنائية بين الدول الأوربية ذاتها

و كانت **المعاهدات بين الإفريقيين والأوربيين** من نوعين أساسيين

أولاً- معاهدات تجارة الرقيق والمعاهدات التجارية، التي أدت إلى احتكاكات نجم عنها التدخل السياسي الأوربي في الشؤون الإفريقية

ثانياً- المعاهدات السياسية التي تخلى الحكام الأفارقة بمقتضاها ضمنياً عن سيادتهم مقابل الحماية، أو تعهدوا بموجبها بعدم الدخول في التزامات تعاهدية مع الدول الأوربية الأخرى.

١- العوامل التي ساعدت الأوروبيين في النجاح في السيطرة على القارة الإفريقية

- خروج العرب من الأندلس أضعف العرب في شمال إفريقيا، والدول الإفريقية الإسلامية وراء الصحراء
- عدم وجود قوة متحدة تستطيع مقاومة الغزاة الأوربيين بعد تصاعد المنافسة فيما بينها
- التطور الكبير الذي طرأ على صناعة الأسلحة والأساطيل الحربية القومية، بفضل الثورة الصناعية التي شهدتها أوروبا

- التسابق الاستعماري بين الدول الأوروبية واندفاع هذه الدول بقوة نحو القارة الإفريقية، لما تملكه من إمكانيات اقتصادية ومواد أولية وأسواق وإمكانيات بشرية هائلة وأيدي عاملة زراعية استغلت كرقيق صدر إلى العالم الجديد.
- البعثات التبشيرية المسيحية التي وفرت الإمكانيات المادية والمعنوية للغزاة، فكان الكثير من رسل التبشير المدفوعين بعوامل دينية ورغبة في تحقيق الانتصار على الإسلام ونشر المسيحية في المناطق الوثنية، قد مهد الطريق أمام دولهم للنجاح في السيطرة على المستعمرات الإفريقية
- تأسيس الجمعيات الجغرافية في أوروبا ومساعدتها للرحالة والغزاة وقيامها بترجمة مؤلفات الرحالة العرب لمعرفة كنوز القارة وطرقها وطبيعتها الجغرافية
- أصبح الأوروبيون بفضل التطورات الثورية في التقنيات الطبية، ولاسيما اكتشاف **الكنين** كدواء واقٍ من حمى المستنقعات (الملاريا)، أقل تخوفاً من التوغل داخل القارة.

٢- تقسيم القارة الإفريقية ١٨٨٥-١٩٠٢:

ا- الممتلكات الأوربية في إفريقية قبيل مؤتمر برلين

١. الممتلكات الإسبانية:

جزيرتي فرناندوبو ١٧٧٨- أنوبون ١٧٧٩ – غينية الإسبانية ١٩٤٣ – ساقية الذهب ١٨٨٤.

أما في شمال إفريقيا، سبته ومليله ١٦٤٠، وأفني ١٨٥٩.

٢. الممتلكات البرتغالية:

أنغولا في غرب إفريقيا، موزامبيق في الشرق، جزر الرأس الأخضر في الغربية.

٣. الممتلكات الفرنسية:

السنغال، والضفة اليمنى من نهر النيجر من منبعه حتى مدينة تمبكتو، ومدينتي كيتا ١٨٨١ ، وباماكو ١٨٨٣ في السودان. وبعض الوكالات التجارية

أما في شمال إفريقية فامتلكت الجزائر ١٨٣٠ وتونس ١٨٨١.

٤. الممتلكات البريطانية:

في الغرب، سيراليون ١٨٠٧ ولاغوس ١٨٦١ وساحل الذهب والمينا وأكرا ١٨٧٤.

في الجنوب الكاب والناتال ١٨٤٣

في الشرق ممباسة ١٨٢٤ وبربرة ١٨٨٤

في الشمال مصر

٥. الممتلكات الألمانية:

الكاميرون والتوغو في الغرب وتنجانيقة في الشرق، وإفريقية الجنوبية الغربية في الغرب.

٦. **إيطاليا** : ميناء عصب في شرق القارة

٧. **جمهوريتي البوير المستقلتين**

جمهورية جنوب إفريقيا ١٨٨٤، ودولة اورانج الحرة ١٨٥٤ في الجنوب

II-تقسيم القارة الإفريقية ١٨٨٥- ١٩٠٢:

من المؤسف انه في أقل من عشرين عاماً تغيرت الخريطة السياسية للقارة الإفريقية بشكل كلّي، فبعد أن كانت أجزاء بسيطة تمثل ١٠ % من مساحة القارة البالغة ٢٨ مليون كم مربع تخضع للسيطرة الاستعمارية الأوربية في عام ١٨٨٥، فإنه لم يبق في العام ١٩٠٢، سوى أجزاء بسيطة منها تساوي ٨ % من مساحتها لا تزال تتمتع باستقلالها وتتمثل في ليبيرية والحبشة(أثيوبية) والمغرب الأقصى. وإن استطاع المغرب الأقصى الحفاظ على استقلاله حتى هذا التاريخ، فإن ذلك لم يستمر طويلاً، لأنه أصبح يخضع للسيطرة الاستعمارية الفرنسية بدءاً من عام ١٩١٢.

وفي نهاية الفترة مابين ١٨٨٥-١٩٠٢، أصبحت ثماني دول أوربية تسيطر على القارة الإفريقية بعد أن تقاسمتها فيما بينها. هذه الدول هي بريطانيا، وفرنسا (وتمتلكان نصيب الأسد)، والبرتغال، وإيطاليا، وإسبانيا، وألمانيا، وبلجيكا(أو بشكل أدق ملك بلجيكا ليوبولد الثاني حتى عام ١٩٠٨ حين انتقلت ملكية الكونغو إلى بلجيكا)، والدولة العثمانية.

وللتعرف على المستعمرات الأوربية بعد مؤتمر برلين يرجى مراجعة الكتاب الجامعي، وخاصة الصفحات(٨٢-٩٤).

٣- الآثار السلبية للاستعمار على القارة الإفريقية:

ا. الآثار السياسية:

أ- ضياع سيادة واستقلال الأفارقة وما صاحبه من ضياع حق الأفارقة في التحكم في مصيرهم الخاص أو التعامل المباشر مع العالم الخارجي، ولاسيما أنه حتى القرن التاسع عشر كان هناك بعض الدول الإفريقية بإمكانها التعامل مع نظيراتها الأوربية على قدم المساواة.

ب-ضياع حق الأفارقة في تقرير مصيرهم وتخطيط تنميتهم الخاصة وإدارة اقتصادهم، وبتعبير أدق حرمانهم من حق الحرية.

ت-في مجال السياسة الداخلية فقد كان للاستعمار الأوروبي أثر هام في إضعاف نظم الحكم المحلية، والقضاء على مركز الزعامات المحلية التقليدية بإلغاء بعض الملكيات التقليدية والأسر الحاكمة إلغاءاً تاماً.

ث-السياسة الاستعمارية العنصرية جعلت الأفارقة يرون بأن الحكومة وكل الممتلكات العامة ليست ملكاً للشعب بل للحكام المستعمرين البيض.

II. الآثار الاقتصادية:

إن أثر المستعمر في المجال الاقتصادي يعتبر من أفدح الآثار على الإطلاق، فقد كانت فترة الاستعمار فترة استغلال اقتصادي بلا رحمة في كافة المجالات، لأن الدول الاستعمارية اهتمت أساساً بخدمة مصالحها، وتنظيم استغلالها للثروة الإفريقية، وتوظيف رؤوس الأموال الغربية بأكبر ربح ممكن، وجمع الضرائب المتنوعة، وابتداع الوسائل والأساليب التي تسهل لها السيطرة على الموارد البشرية والثروات الطبيعية للقارة.

III. الآثار في المجال الاجتماعي:

روج الاستعمار إلى فكرة أصبحت سائدة في أذهان الكثيرين من البيض، سواء في أوروبا أو في أمريكا، مفادها بأن أفريقيا كانت موطناً لشعوب تفتقر إلى الأصول الحضارية، وأنها مجرد قارة تعيش فيها شعوب متوحشة، وأن المجتمعات الإفريقية كانت مجتمعات بدائية لم تستطع أن تأخذ بشيء من الحضارة. وقد تجنت هذه النظرية العنصرية الأوروبية على تراث إفريقيا وحضارتها.

كما شكّل المستوطنون الأوربيون مشكلة اجتماعية خطيرة أحدثت شرخاً في العلاقات الاجتماعية والتقاليد الإفريقية، لأنهم عاشوا في مجتمعات مختلفة كلياً عن المجتمعات الإفريقية المحافظة.

أما في مجال التعليم، فقد كان قاصراً وموزعاً توزيعاً غير متوازن وموجهاً توجيهاً سيئاً، ولم يسمح بإدخال التعليم الجامعي إلا في نهاية فترة الاستعمار. هذا كله أدى إلى مشكلة الأمية التي ما تزال إفريقيا تعاني منها إلى الآن.

ولعل سياسة التمييز العنصري من أشد الآثار الاجتماعية للاستعمار، ولا يفوقه سوى تجارة الرقيق. وقد نظم التمييز العنصري وفق قوانين أصدرتها الحكومات العنصرية البيضاء، والتي سعت إلى الفصل التام بين السود والبيض.